خواطر حول الجبل

بقلم الروائي : محمد جاد الله

obeikan.com

طالما امتلأت نفسي بالرهبة والوجل منذ نعومة أظفاري، كلما نظرت إلى الجبل!

كانت سلسلة تلال المقطم التي أسماها الناس «جبل المقطم» هي أول ما تعرفت عليه عيناي من جبال الأرض..

هناك.. على سفح التلال الحجرية الشامخة.. وفي حمايتها.. تسكن رفات أبي وأومي وكل من عبروا تباعًا من عائلتي إلى العالم الآخر، في مقابر أسرتنا المجاورة لمقام ومسجد سلطان الحب الإلهي وشاعره عمر بن الفارض..

هناك.. في طفولتي.. ارتبط الجبل وتداعيات النظر إليه عندي بالله وحبه.. وبالموت ورهبته.. وبفقد الأحباء الموحش.. وبالتحوُّلات التي تصيب الجسد بعد الموت حتى يصير ترابًا..

.....

خلال فترة انشغالي وشغفي بآثار وتاريخ مصر.. تجولت ربع قرن كعابر سبيل بين أقوام مختلفة العادات والتقاليد.. مستقرة على ضفتي النيل من أقصاه إلى أدناه.. من نقاط التقائه بالبحر المتوسط شمالاً وحتى وادي حلفا جنوبًا..

وعبر النظر إلى سلاسل التلال التي تفصل بين الوادي الخصيب بكل ما يحويه من مظاهر حياة على امتداده في صعيد مصر.. وبين صحراء جرداء لا نهائية، تحد الوادي من مشرق الشمس إلى مغربها.. تَرَسَّخ لديّ الشعور بأن التلال والجبال ما هي إلا حدود فاصلة بين عوالم وآفاق للوعي والتدبر..

.....

ثم كانت النظرة الأولى لجبال سيناء الشامخة التي تضاءلت أمامها كل تلك التلال التي ظننت يومًا أنها جبال وأنها شوامخ!!

هكذا الناس في بلادنا.. يسمون كل تلة ارتفعت عن الأرض جبلاً.. يظنون أنها تصلح لحمل خصائص وصفات الجبال.. بل وقد تصلح أيضًا لأن تكون بقعًا مقدسة!

هنـاك.. حيـث الصخـور الصلـدة متباينـة الألـوان وتراكيـب الطبقـات.. حيـث القمـم التـي تفـوق السـحب ارتفاعًـا.. كلـم اللـه مـوسى ابـن الإنسـان تكليـمًا..

وفي غـار بأحـد جبـال مكـة الشـوامخ.. هبـط سـيد الملائكـة جبريـل حاملاً بشـارة الوحـي لمحمـد بـن الإنسـان..

وعـلى جبـال بيـت المقـدس تهـادى المسـيح ابـن الإنسـان بـين حواريـه تَحُفُّـهُ الملائكـة أينـما حـلَّ..

في رحـاب الـرواسي الشـامخة تنفتـح البوابـات الفاصلـة والمُوصِّلـة بـين الآفـاق.. وكأن الجبـال تحمـل شـفرة للتواصـل.. تبـوح بهـا لمـن نظـر وتأمـل.. منتظـرًا أن تـشرق شـموس المعـارف عـلى وعيـه.. منتظـرًا في تسـليم.. دون توقعـات أو شروط مُسـبقة..

....

وقـد يَتَلَهَّـى الإنسـان بالنظـر إلى الجبـال مـن حولـه وتأملهـا دون أن يشـغل نفسـه بالنظـر إلى تضاريـس نفسـه التـي تسـكن جوانحه..

فالأنفـس الإنسـانية تُماثـل جبـال الجليـد في تعقيـد بنيانهـا وغيـاب معظـم ملامحهـا في تشـعبات تمتـد لأعـماق سـحيقة يصعـب سـبر غورهـا.. ولا يمثـل مـا نعيـه مـن بنيانهـا إلا قمـم تلـك الجبـال..

....

لـو نظـر الإنسـان إلى نفسـه تمامًـا كـما ينظـر بـكل تسـليم إلى جبـل جليـد شـامخ يختفـي معظمـه تحـت ميـاه الحيـاة المتقلبـة التـي تنخـر في طبقاتـه...

لـو أدرك الإنسـان أن مفـردات عقلـه الباطـن تشـكلها صراعـات لا أول ولا آخـر لهـا.. ثـم أيقـن أنـه يملـك تمامًـا المقـدرة عـلى مواجهـة تلـك الصراعـات وحسـمها بمـا فيـه صالـح أمـره في تلـك الحيـاة...

فسوف تنفتح له أبواب الرؤية لمراد الله في خلقه، على صورته التي لا توجد منها في الأكوان نسخة أخرى تتطابق معها..

وسيتعلم حينئذٍ أن النظر إلى شموس الاستنارة الكونية التي تشرق على وعيه ووجدانه من خلف جبل جليده لن تؤذي البصر..

حينئذٍ.. سيرى..

....

يزول الإنسان.. بينما تبقى الجبال رمزًا للسماوية بارتفاعها.. وللثبات الراسخ الذي يحظى به المؤمنون في الدنيا..

obeikan.com